القسم الثالث

ملف العدد

حادث اختطاف السفير المصرى بالعراق إيهاب الشريف

على ضوء أحكام الشريعة الإسلامية

والقانون الدولى الإنسانى

obeikandl.com

ورقة أ.د. إبراهيم العنانى

رئيس قسم القانون الدولى بكلية الحقوق - جامعة عين شمس

يجدر بنا تناول موضوع" حماية المبعوثين الدبلوماسيين فى حالة النزاع المسلح" من خلال ثلاث زوايا:

الزاوية الأولى: تتعلق بوضع الممثلين الدبلوماسيين فى حالة النزاع المسلح.

الزاوية الثانية: تتعلق بالتكييف القانونى لما حدث لرئيس البعثة المصرية فى العراق.

الزاوية الثالثة: مدى المسئولية القانونية ولمن تسند هذه المسئولية.

فيما تتعلق بالزاوية الأولى: إن العلاقات الدبلوماسية هى علاقات سلمية غايتها الأساسية توطيد وتحسين وتعزيز العلاقات فيما بين الدول الأطراف، فإذا ما نشبت حرب بين دولتين فإن العلاقات الدبلوماسية السياسية تنقطع بينهما، وإن بقيت فى بعض الحالات العلاقات القنصلية أو رعاية المصالح.

أما فى العلاقة بين أحد الأطراف المتصارعة أو المتحاربة ودولة ليست طرفاً فى النزاع (دولة محايدة) فإن الأصل فى هذه الحالة أن العلاقات الدبلوماسية لا تتأثر بالنزاع، بمعنى أن هذه العلاقات تظل قائمة دون انقطاع، وإن كان النزاع المسلح قد يؤثر على حجمها فيؤدى إلى تقليصها، أو وقفها مؤقتاً إذا ما أدت هذه الحالة (حالة النزاع المسلح) إلى تهديد خطير لحياة ووضع هذه البعثات.

كما تحرص الدول غير الأطراف فى النزاع المسلح الدولى على أن تبقى علاقتها الدبلوماسية قائمة وإن قلصت من حجمها حسب الظروف، فتبقى هذه العلاقات لرعاية المصالح المتبادلة، ومن أهم هذه المصالح مصالح رعايا الدولة الموفدة للبعثة الدبلوماسية الموجودة على أرض الدولة التى هى ميدان النزاع المسلح مع دولة أخرى، وذلك فى تقديرى هو الوضع الذى كان عليه الحال فى العلاقة بين مصر والعراق. فالعراق هى دولة طرف فى الحرب مع الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها، تلك الدولة التى

احتلت أرضها، أما مصر ليست طرفاً فى النزاع المسلح و لها رعايا فى العراق، وبالتالى فمن مصلحتها أن توجد لها بعثة تمثيلية، أو تظل بعثتها التمثيلية قائمة بالحجم الذى يتناسب مع رعاية مصالح رعاياها فى العراق.

يضاف إلى هذا أنه بحكم أن مصر أكبر دولة عربية تقود عملية الحفاظ على التعاون العربى وتوطيده، وأنها هى الدولة التى يهمها أن يستعيد العراق سيادة و يتحرر من الاحتلال الجاسم لأرضه، فقد كان من مقتضيات ذلك أن تتحمل مصر عبئاً أكبر يتمثل فى تشكيل بعثتها الدبلوماسية بالحجم المناسب لهذه الأوضاع والظروف بهدف حماية رعاياها الموجودين على أرض العراق، وحرصها من خلال الإبقاء على هذا التمثيل على مساندة الشعب العراقى ودعمه من أجل تحريره مما هو فيه من الاحتلال وتخليصه من آثار العدوان الجاسم على أرضه كل هذه الاعتبارات اعتبارات واقعية، واعتبارات مصلحية ذاتية، واعتبارات إقليمية عربية، واعتبارات قومية، وكلها كانت وراء إبقاء البعثة الدبلوماسية المصرية.

ما هو القانون الذى يحكم هذه العلاقات ؟

بالطبع فإن العلاقات الدبلوماسية يحكمها قانون أساسى ينبع من أحكام اتفاقية فيينا للعلاقات الدبلوماسية عام ١٩٦١م، بالإضافة إلى اتفاقيات أخرى تتعلق بالعلاقات القنصلية، وجميع أحكام هذه الاتفاقات تحكم الوضع القانونى للبعثة الدبلوماسية والبعثة القنصلية والحصانات المقررة لأعضاء فيهما ولكن فى وقت النزاع المسلح لا يتصور أن تطبق هذه الأحكام تطبيقاً كاملا، لأن كثيرا منها يمثل قواعد تطبق فى وقت السلم فقط.

إن النزاع المسلح يخلق ظروفاً غير عادية تؤثر إلى حد كبير فى مدى تطبيق أحكام هذه الاتفاقيات بدرجة كاملة، ولذلك يرجع فى هذا الشأن إلى ما تضمنته الاتفاقيات والأعراف الدولية الخاصة بحالات النزاع المسلح، وفى مقدمتها اتفاقية جنيف لعام ١٩٤٩م وبروتوكوليها. وهذه المصادر تشير إلى اعتبار الدبلوماسيين والقناصل

الموجودين على أرض الدولة فى حكم المدنيين، أو هم من الفئات المحمية بمقتضى أحكام هذه الاتفاقيات، وأنه لا يجوز التعرض لهم أو المساس بهم وأنه ينبغى كفالة الحماية الكاملة لهم، وإبعادهم عن مناطق النزاع المسلح... إلى آخر ما تضمنته هذه الاتفاقيات والأعراف من أحكام لحماية هذه الفئات من الموظفين الدوليين.

وهذا ينقلنى إلى التحدث عن النقطة الثانية، وهى المتعلقة بالتكييف القانونى لما حدث لرئيس البعثة المصرية.

لقد سحبت مصر سفيرها من العراق وقلصت من حجم بعثتها الدبلوماسية، ولكن وفقا لتطورات الأوضاع السياسية ورغبة مصر فى أن تساند الشعب العراقى، صدرت دعوة عن جامعة الدول العربية إلى كافة الدول التى شاركت فى مؤتمر القمة الأخير الذى عقد فى الجزائر، بأن على الدول العربية أن تتضامن مع الشعب العراقى من أجل إخراجه من هذه الأزمة.

لم يكن رئيس البعثة سفيراً لمصر فى العراق، لأن العلاقات الدبلوماسية الكاملة لم تكن قائمة أو لم يتم إعادتها بالكامل بين مصر والعراق، فكان الدكتور إيهاب الشريف - وهو فى درجة سفير - قائما بأعمال رئيس بعثة لرعاية المصالح المصرية.

إن ما حدث لرئيس البعثة هو عملية اختطاف، توجب علينا أن نبحث فى القانون الدولى عن المظلة القانونية التى تعالج مثل هذا الوضع، فنجدها تتمثل فى اتفاقية دولية تم إقرارها من الجمعية العامة للأمم المتحدة فى عام ١٩٧٣م، ودخلت حيز النفاذ بتصديق الدول عليها. وهذه الاتفاقية تجرم الأعمال الماسة بالأشخاص المحميين دولياً، ومنهم الدبلوماسيين، بمعنى أن الدبلوماسيين محميون بمقتضى هذه الاتفاقية، وما يرتكب ضدهم من أعمال يمثل جريمة ضد الإنسانية، سواء حدث ذلك فى وقت السلم أو وقت الحرب. ونجد أيضا ما تضمنته اتفاقيات جنيف لعام ١٩٤٩م من تجريم أخذ واحتجاز الرهائن يمثل جريمة من جرائم الحرب التى هى انتهاك خطير لقوانين وأعراف الحرب، ويتعين مواجهتها بأشد العقوبات.

إن عملية أخذ واحتجاز الرهائن فى وقت النزاع المسلح اعتبرها ميثاق روما المؤسس للمحكمة الجنائية ـ التى تعمل بصفة دائمة منذ عام ٢٠٠٢م ـ ضمن جرائم الحرب التى تختص بنظرها المحكمة.

وحينما ننظر إلى ما حدث نجد أنه جريمة من جرائم الحرب التى جرمتها الوثائق الدولية واعتبرتها من الجرائم الخطيرة التى ينبغى أن يؤخذ مرتكبوها بأشد العقوبات، وأن الاختصاص فى نظر الدعوى بشأنها يثبت للدولة التى وقعت الجريمة على أرضها وكذلك للدولة التى ينتمى إليها المجنى عليه، وكذلك يثبت الاختصاص للمحكمة الجنائية الدولية، لأن ما يحدث هو جريمة قتل الرهينة أى أنه لم يقتصر الأمر عند الاحتجاز بل أمتد إلى قتل هذه الرهينة. فما بالنا وأن هذا الأمر قد انصب على دبلوماسى.

هناك أكثر من وثيقة دولية يرجع إليها تجرّم مثل هذا الفعل، وتدخله ضمن الجرائم الخطيرة التى يتعين تتبع مرتكبيها ومحاكمتهم وتوقيع أقصى العقوبات عليهم.

وهذا ينقلنى إلى النقطة الثالثة وهى المسئولية القانونية، فأنى أفرق فى المسئولية القانونية بين جانبين، جانب المسئولية الجنائية وجانب المسئولية التعويضية أو المدنية.

إن المسئولية الجنائية ثابتة تماما ضد من ارتكب مثل هذه الأعمال، سواء كانوا أفراداً أو جماعات وأيا ما كانت تسميتهم.

أما بالنسبة للمسئولية المدنية أو التعويضية فهى تسند إلى الشخص القانونى الدولى، وهنا حين أنظر إلى الوضع فى العراق الذى تمثل فى وجود سلطة احتلال لها السيطرة الواقعية على أرض العراق، ووجود حكومة عراقية انتقالية ليست لها سيادة كاملة ولكن لها بعض الاختصاصات، منها حماية الأجانب وحماية أعضاء البعثات الدبلوماسية الذين يقومون بأدوارهم السياسية والإنسانية، حيث إن إبقاء البعثات الدبلوماسية فى أراضى النزاع المسلح أو الأراضى المحتلة له غاية إنسانية هى المساهمة فى احترام قواعد القانون الدولى الإنسانى ، فأحيانا يقوم هو بدور ممثل الدولة الحامية

وأحيانا يقوم بدور ممثل الجهات المعنية بحماية الأعيان الثقافية وفقا لاتفاقية لاهاى لعام ١٩٥٤، فهناك العديد من الوثائق التى تعطى له اختصاصات فى الجانب الإنسانى.

أما بالنسبة للمسئولية الدولية من الناحية القانونية فيمكن توجيهها إلى سلطات الاحتلال، على أرض العراق التى تقودها الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك باعتبار أن سلطة الاحتلال بحكم القانون الدولى وبحكم اتفاقيات جنيف وقواعد وأعراف الحرب الدولية، تتكفل بأن تحمى المصالح الدولية وأن تحمى البعثات والوفود الرسمية الموجودة على أراضى النزاع المسلح أو على الأراضى المحتلة. وتعتبر الحكومة العراقية أيضاً مسئولة هى الأخرى بحكم أن لها السلطة الرسمية التى هى وإن كانت محدودة إلا أنه يدخل فى إطارها سلطة حماية البعثات الدبلوماسية، وهى التى طلبت وشددت على ضرورة إبقاء تلك البعثات الدبلوماسية، وبخاصة البعثات الدبلوماسية العربية.

وقبل هذا الحادث بأيام كان رئيس الوزراء العراقى فى زيارة للولايات المتحدة الأمريكية، فكان يعيب على الدول العربية أنه حتى اللحظة التى كان يتحدث فيها لم ترفع بعثاتها الدبلوماسية إلى درجة السفارة، فمعنى ذلك أنه يؤكد الحماية الكاملة للبعثات الدبلوماسية من جانب الحكومة العراقية. فالمسئولية المدنية التعويضية تسند إذن إلى سلطات الاحتلال و إلى دولة العراق.

ما هى الآلية التى تحرك بها هذه المسئولية؟

تحرك هذه المسئولية على مستوى سياسى أمام المنظمات الدولية المعنية، وفى مقدمتها الأمم المتحدة، وعلى مستوى قانونى أمام المحاكم الدولية لطلب التعويض، أو أمام أية جهة من الجهات المختصة بتسوية التعويضات بين الدول المتضررة والدول المسئولة عن إحداث هذا الضرر.

وشكراً

obeikandl.com

ورقة أ.د. محمد العدوى

الأستاذ بجامعة الأزهر

إن الوجه المشرق المضيء للإسلام يعكس أمراً مهماً كما يقولون فى العلاقات الدولية، فإن العلاقات الدولية تعنى الحفاظ على العهود والمواثيق وحق الإنسان فى الحياة، والإسلام فى هذا المجال غنى وثرى وقد وضع هذه المبادئ وتلك المثل قبل أن يعرفها العالم فى دساتيره.

من يتتبع القرآن الكريم فى حثه على الوفاء بالعهود﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾[المائدة:١] وتحت هذه الكلمة يتفرع كل شئ،﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها﴾[النحل:] إذن الوفاء بالعهود والمواثيق هو مبدأ أصيل فى الإسلام، وحسبنا فى ذلك أن الذى أمر بذلك هو الله سبحانه وتعالى، وفى مجال التطبيق، نجد الرسول (يطبق هذه المبادئ المثلى على العلاقات المحلية، وفى علاقاته الدولية، وقد بدا ذلك واضحاً فى أول شئ وجدناه فى كلمة سفير، وهى كلمة عربية الأصل والقرآن الكريم أشار إليها"﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾[عبس:١٥-١٦]، والسفير فى اللغة تعنى كلمة رسول فهى من كلمة سفر. وقالوا أن كلمة سفير تعنى القائم بعملية السفارة عرفها العرب قديماً منهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه فكان يقوم بالسفارة العربية بين القبائل العربية قبل الإسلام.

ومن هنا نرى رسول الله ﷺ يهتم بهذا الأمر، ففى العام السادس من الهجرة وهو عام صلح الحديبية لم يرد ﷺ أن يبادئ قريش بحرب، فقد ذهب معتمراً وأرسل أول سفير له فى هذا الشأن عثمان بن عفان رضى الله عنه لفض المنازعات ولتأمين الناس إلى مكة، فاحتبسته قريش وأشيع أن سفير النبى ﷺ قد قتل، فكانت النتيجة هى بيعة الرضوان، وبايع المسلمون رسول الله ﷺ أن عثمان إذا مسه المشركون بشيء فسوف يدخلون مكة عنوة وفى هذا نزل قوله تعالى﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[الفتح:١٠].

شئ أخر إنه ﷺ أرسل سفيراً من قبل يوطد العلاقات بينه وبين الدول الناشئة فى المدينة المنورة، وكانت ذات أبعاد دستورية تفوق ما عليه الناس الآن، أرسل سيدنا مصعب بن عمير رضى الله عنه كأول سفير للدعوة إلى الله. فكما يقولون، ما أشبه الليلة بالبارحة، فقتل السفير المصرى بالعراق لعله يشبه قتل سفير النبى (فى مؤتة. كيف حدث هذا ؟

أرسل الرسول ﷺ بعد العام السادس من الهجرة رسله وكتبه إلى العالم كله، أكثر من مائه كتاب، على عكس ما يظن الناس أنهم أربعة كتب. أرسل إلى النجاشى وكسرى وهرقل والمقوقز، فإنها أكثر من مائه كتاب ولكن هذه الكتب الأربعة هى المشهورة.

والذى يعنينا هنا إنه ﷺ أرسل الحارس بن عمير الأسدى إلى شرحبيل أمير بوصرة وكان أمير الغساسنة، فإمارة الغساسنة أقامتها الروم حاجزاً، كما يحدث الآن وكما يقولون كلمة إقامة حواجز بين دولة ودولة، لكن الذى حدث أن هذا السفير حينما ذهب ليسلم أمير بوصرة كتاب رسول الله ﷺ قتله.

فماذا كان الموقف ؟ أمر رسول الله ﷺ بتحريك جيش ليثأر وليؤدب أولئك الذين اعتدوا على السفير فكانت غزوة مؤتة تضم ثلاثة آلاف مسلم، استشهد فيها جعفر بن زيد بن حارثه ثم جعفر بن أبى طالب ثم عبد الله بن رواحة، فى مقابل حشد رومانى بلغ مائتى ألف مقاتل. إذن هذا موقف يعبر عن كيفية احترام السفير وأن تقوم الدولة لتؤدب من يقوم بتهديد السفير الذى يمثل كرامة الأمة الإسلامية.

ونجد أيضا سفراء رسول الله ﷺ انتشروا فكانوا يستقبلون استقبالا كريماً. وضرب رسول الله ﷺ مثلاً فى استقباله للسفراء، حينما بعث كتابه إلى كسرى عن طريق عبد الله بن حذافة السهمى، ومزق كسرى الكتاب فدعى عليه رسول الله ﷺ وقال:" فرق الله ملكه" لكن الذى حدث أن كسرى قبل أن يمزق ملكه أرسل إلى عامله باليمن وقال له ائتنى بهذا الرجل. كيف يتجرأ وهو عربى أن يكتب إلى كتاباً يدعونى فيه إلى الإسلام

ائتنى به مقيداً. فبعث عامل كسرى على اليمن رجلين لكى يبلغوا الأمر لرسول الله ﷺ ويأخذانه، وحاورهما رسول الله ﷺ وكان قد نزل عليه الوحى فنبأه بأن كسرى فعلاً قد مزق الله ملكه، ومن هنا قال ﷺ لأنه رأى فى لهجتهما نوع من التهديد والوعيد فأكرمهما وقال" لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكما ولكن أبلغا باذان أن كسرى قد مزق الله ملكه، وأنا أدعوه للدخول فى الإسلام. لقاء هذا العهد والوفاء به والمعاملة الحسنة فى العلاقات، ورسول الله ﷺ لم يكن ليس حاكما أو رئيس دولة فحسب، وإنما هو أرقى من هذا بكثير، فهو رسول الله ﷺ ، كل المثل التى يتحلّى بها رؤساء الدول تتمثل فى رسول الله لأنه حاكم ورسول، لا يتحاكم بقانون وضعى وضعته عقول قد تخطئ أو تصيب أو بمبادئ وضعتها تشريعات أرضية قد تصلح وقد تفسد، وإنما هو حامل شرع الله الموحى إليه من السماء ومن ثم كانت المبادئ التى يرسيها ممثلة فى القرآن الكريم وفى شخصه الكريم ﷺ وفى قوله" لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكما"، ومن ثم أسلم باذان وكثير ممن كانوا معه.

لو تتبعنا بعد ذلك ما فعله خلف رسول الله ﷺ الخلفاء الراشدون ومن جاء بعدهم، حتى بلغت الدولة الإسلامية من الأندلس غرباً إلى الصين شرقاً، وجدنا تكامل النظام الإدارى ورقى العلاقات الخارجية وسمو السفراء لاسيما فى عهد عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه. وكيف كان السفير يرسل ويعود بالخير كله وكانت الدولة الإسلامية عزيزة،كريمة، منيعة، لأن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، ودولة الإسلام تعلو ولا يعلى عليها، ومبادئ الإسلام تعلو ولا يعلى عليها.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

❊ ❊ ❊